المتوازنة نسبياً. كان توحيدها، على شكل امبراطورية وتحت راية واحدة، مستحيلاً من داخلها. لذلك، كان ينبغي السيطرة على خارجها للسيطرة عليها هي ذاتها. لا بد من الاندفاع نحو الخارج من اجل تعزيز الوضع في الداخل، ومن اجل زعزعة اوضاع الخصوم الاوروبيين الآخرين والهيمنة عليهم واحباط مشروعاتهم المماثلة.

هذا عزّز الحلم الشرقي، وأضاف الى ألوانه الزاهية مجالاً يفتح الشهية ويخلب الألباب. وهذا يفسر، في الوقت عينه، كثيراً من الصراعات الاوروبية واحلافها واستراتيجيات دولها؛ كما انه يفسر صراعاتها في المستعمرات فيما بعد، بالقدر الذي يفسر صورة الشرق التاريخية في ذهن الغرب. فالشرق، الساحر، والمسحور، والمتدين، هو مصدر لا ينضب للثروة والمجد والقوة. وهو الامتداد الحيوي لاوروبا هذه، المحكومة بجغرافيتها وبنمط تفكير سياسييها وتاريخها[1]. هذا لا يفسر كل استراتيجياتها، ولكنه قد يلقي ضوءاً ما على التفكير الاوروبي بصدد الشرق، منذ الحروب الصليبية حتى العصور الحديثة، مروراً بما سمي الازمة الشرقية وكل ما نجم عنها من سياسات وتدخلات وغزو، الخ.

ولا شك في ان لحرب الاستقلال الاميركية، ولخسارة بريطانيا لمستعمراتها هناك في النصف الثاني من القرن الثامن عشر (١٧٧٦)، دوراً هاماً في مركزة التوجه نحو الشرق، كمصدر آخر للثروة، بعد فترة طويلة امتص العالم الجديد فيها معظم الطاقات وصار بؤرة الصراعات القارية. هذا نجده واضحاً، على الاقل لدى انكلترا أيام بت (Pitt)؛ وهذا، بحد ذاته، سبب كاف لاشتعال حمى جديدة ستعم سياسييها وقصورها ثم مغامريها ومفكريها للتوجه نحو مصادر جديدة للذهب والتجارة وامتصاص عناصر الانفجار الداخلية.

كان لا بد من ان تكون السلطنة العثمانية هي مركز حمّى الشرق هذه وبؤرة هيجانها. فكل الطرق الشرقية تمر عبرها. وما سمي، يوماً، طريق الهند كان يخترق الاراضي العثمانية من جهتي الخليج وايران ومصر والبحر الاحمر؛ وكان لا بد للبحر المتوسط من ان يصبح بحيرة اوروبية؛ وكان لا بد من السيطرة على شواطئه الشرقية؛ وكان لا بد من الاتصال بالبحر الاحمر. وقد شكل شق قناة تصل البحر الاحمر بالمتوسط حلماً قديماً يعود الى ايام لويس الرابع عشر في القرن السابع عشر العام ١٦٧١. وخلال حرب السنوات السبع مع انكلترا (١٧٥٦ ـ ١٧٦٣)، خطّط رئيس الوزراء الفرنسي في عهد لويس الخامس عشر، شوازول، لضرب انكلترا، عبر السيطرة على الشرق وحرمانها من طرق تجارتها الهندية؛ وكان لحفر القناة دوراً في هذا المخطط[2]. وهي الاغراض ذاتها التي كانت وراء غزوة نابوليون بونابرت، فيما بعد، ووراء احلام ساسة بريطانيا الكبار منذ بت وسالزبوري حتى تشرشل في القرن العشرين.

ان تاريخ فلسطين محكوم بجغرافيتها. موقعها يفسر كل تاريخها العام. فكل طامح الى تأسيس امبراطورية كبرى، متوسطية او شرقية، كان يبحث فيها عن موطىء قدم؛ وفي الحقيقة عن قلعة تقع في قلب مشروعه الكبير. هذا يبدأ بالاشوريين والرومان، ولا ينتهي بالبريطانيين في القرن العشرين. وهذا حكم، في الوقت عينه، الطابع العام لتكوينها البشري والثقافي. انها ارض مقدسة؛ ثم هي تتحكم في ما حولها وجوارها؛ وهي، لذلك، ورشة حقيقية للثقافات المتنوعة والآلهة والأنبياء الذين يُهاجرون منها. وقد يفسر هذا مكانة القدس الدينية وكل المعتقدات والاساطير التي تدور حولها، كمركز للعالم، وكمكان لهبوط المسيح المخلص، ولنهاية العالم والتاريخ وقمته في آن، بحسب العقيدة الألفية. وقد يفسر هذا جملة نابوليون بونابرت الشهيرة عن قلب العالم، وغير ذلك مما لا مجال لذكره هنا. غير أنه يفسر، في كل الاحوال والحالات، تاريخ فلسطين الحديث، من جهة، ومشروع بونابرت، من جهة اخرى. ان «قدر